

كلمة التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

١. القرآن العظيم هو الرسالة الإلهية العظمى التي مَنَّ بها الربّ الجليل على الناس وأذن لهم أن ينظروا فيها ويظهروا أرواحهم بزال مائها الجاري.. ويطيروا بها إلى سماء معرفته.

وهذه هي الرسالة الجليلة السماوية التي عبّر عنها بالبصيرة والهدى والتبيان والنور والشفاء والبرهان والحكمة والذكر والفرقان ونظائر هذه العناوين؛ ليعلم الجميع بأنهم ليس لهم غير هذا الكتاب المبين للنجاة من أشكال التعلّق والتشبّث بفخاخ الدنيا..

٢. كيف نعرف القرآن؟ على حدّ تعبير أحد أكبر عارفي القرآن المعاصرين؛ ينبغي أن نرد حياض الكتاب من طرق ثلاث:

أ: الله جلّ جلاله؛ الذي أرسل هذا السّفر النفيس؛ قال سماحته في ذلك:

«لا يمكن تعريف القرآن إلّا من صاحب القرآن، فهو الذي يعرف كتابه غيره. وإنّ المرجع في أن نعرف موضوعاً ما؛ متشعبٌ ثلاث شعب ولا رابع فيها أو لها.. المقام الألوهية.. فالله تعالى قد نزل أحسنّ الحديث.. وهذا هو القرآن بتعريف الله.. فتكون النتيجة: أنّ القرآن مهيمٌ على حديث جميع الملائكة المقرّبين.. وكذا هو حديث جميع الأنبياء والمرسلين.. لماذا؟ لقوله المطلق: أحسن الحديث..»

ب: الطريق الثاني؛ الرجوع إلى النّبّي المخاطب المباشر بالوحي الإلهي.. وقد نزلت هذه الحقيقة الإلهية الكبرى والسامية على قلب هذا النبي المقدّس الجليل.. قال - دام ظلّه -:

«المعرّف الثاني؛ الشخص الأوّل في العالم.. وهو النّبّي الخاتم؛ الذي لا يتزلزل قلبه [ولو] تهدّم

١. قلّ الأقوال الميزة بالعارضة؛ هي تعريف مقاطع من عبارات الفقيه الكبير الشيخ الوحيد الخراساني - دام ظلّه - و من مجالس درسه الأول إلى الرابع في تفسير القرآن سنة ١٤٢٩ قمرية.

العالم.. فإذا ما قرع ناقوس الخطر؛ كان ذلك مدعاة إلى التأكد من عظيم أهمية الأمر.. ثم مدى أهمية دفع ذلك الخطر.. وهو قد أعلن عن فادح خطر قادم.. إذ قال [صلى الله عليه و آله]: ستكون بعدي فتن في هذه الأمة.. فقليل: و ما السبيل إلى ذلك؟.. فقال: كتاب الله العزيز...
ج: الطريق الثالث؛ الرجوع إلى توجيهات و كلمات رجل عظيم، و صفته تصاريح الفريقين أنه الأكثر إحاطة بالقرآن، كما تشهد بذلك الكتب و الوثائق المدونة المتوفرة:

«لوصي النبي الخاتم.. أمير المؤمنين^٧ خطبة في نهج البلاغة بصدد تعريف القرآن أورد فيها حوالياً (٢٢) عنواناً [منها]: «ثم أنزل عليه الكتاب نوراً.. وجرأ لا يدرك». والصيغة هنا صيغة مجهول في موضوع البحر.. وإن وصف القرآن بالبحر ينطوي على بحث مهم.. ثم النقطة الثانية، كون قعر هذا البحر؛ لا يدرك.. فهو كتاب «فيه تبيان كل شيء».. فإذا ما فهمت هذه النقطة، فهمت كلام الأمير الذي هو أمير الكلام... «إنه لقرآن كريم» و إذ يقول تعالى بأن هذا القرآن كتاب كريم، ينبغي أن يفهم ما هو هذا الكرم الذي في قرآن.. «في كتاب مكنون» مستور عن كل الخلق، أن ما كشف لنا في هذا الكتاب ليس سوى شعاع؛ أو بلكل من بحر عميق زخار... «لا يمسسه إلا المطهرون» فينبغي التطهر في الرجس ثم تمس ألفاظه.. غير أن مَسَّ المعنى ما هو مبرّه؟ هنالك تتجلى مراتب الطهر والتطهر [وطبقاً للحديث الصحيح على مباني الفريقين] قالت أم سلمة: سمعت رسول الله يقول: «عليّ مع القرآن؛ والقرآن مع علي.. لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض...» إن ماورد في هذا الحديث النبوي محيّر للعقول.. إذ المعية لعناوين الذات إضافة، و ذكر جهة تغني عن الجهة الأخرى.. وفي عنوان ذات الإضافة هذا، كان كافياً أن تدرج تلك الجهة، ولكن في هذا التصريح النبوي أدرجت دقائق، حيث عاد النبي كزة أخرى وقال: والقرآن مع علي.. فرسم قوله الكريم هذا دائرة قدسية ووضع القرآن في وسطها، وجعل علياً محيطاً لهذه الدائرة.. فقال: عليّ مع.. ثم ختم بالقول:... مع علي.. في ما جعل القرآن وسطاً في هذه الدائرة.. و إذا كان الأمر - كما وصف القرآن بأن «له ظهر و بطن» و بأن «له تخوم و على تخومه تخوم» و أن في هذه البطون «تبيان كل شيء» فيا ترى من هو الذي مع تمام القرآن وتمام القرآن معه غير علي بن أبي طالب؟
٣. تتجرد هنيئة عما كان (ينبغي أن يكون) ونعود إلى (الذي كان)؛ فننظر إلى التاريخ.. نرى كتاباً

١. انظر: نهج البلاغة: شرح فيض الإسلام، الخطبة ١٨٩، ص ٦٤١.

سماوياً معزولاً عن مواقفه.. احترموا في الظاهر الكتاب الصّامت، متجاهلين الكتاب الناطق.. وفي هذا الصّدّد. ألقيت جميع التصريحات والتأكيدات للرّسول الأمين - و هو الذي جاء بالكتاب المبين - في طيّ النسيان. وصار الذي صار..

ولكن ماذا عن مصير القرآن ودوره؟ «كتاب أنزلناه إليك لتُخْرِجَ الناسَ من الظلمات إلى القرآن» [ابراهيم/١] فأخرج الناس.. يعني كلّ الناس.. (العالم والعامّي وفي جميع الأزمنة و الأمكنة) من الظلمات (جميع الظلمات؛ وفي كلّ زمان و مكان.. ولكل الظلمات أشكال خاصة) إلى النور...

ولكن هذا الهدف بخصوص القرآن لم يتحقّق في موارد كثيرة.. ووقع الاختلاف في تفسيره.. وصار «تبيينه» أرضية و مشكلة حتّى تحوّل هذا التبيان المراد إلى «ظلمات» بفعل الذين تناسوا حقيقة القرآن و مرافقه الدائم.. إلى الحدّ الذي لم يردّه الآتي بالقرآن أبداً.. و يكنّ التعبير بـ «الفتن من بعدي» للإشارة إلى احتلاق هذه الظلمات والفرقة..

٤. لماذا صار الذي صار؟! قد عدّ الله عزّوجلّ في القرآن العظيم مصدر الاختلاف والفرقة "بغياً بعد علم".."فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيّاً بَيْنَهُمْ" [الجاثية/١٧].

هناك أوجه تفاوت بسيط وجزئي ناشئ عن الجهل.. أما الاختلاف المستديم والعميق فيحصل بعد العلم، فيخطّط له الخائضون فيه بشكل دقيق وواضح، ثم ينهمكون فيه و ينفذونه.. يؤيّد ذلك التغيّرات الاجتماعية والنظر فيها بواقعيّة.. وهذا الأصل كان القرآن الكريم قد بيّنه.. فماذا إذن؛ عن زرع الاختلاف المتعمّد؟ الإجابة على هذا السؤال تتطلّب بحثاً ودراسة أخرى، أمّا إذا عدنا إلى بحثنا، وجدنا أنّ البغي (التمرد والتجاوز على حقوق الآخرين) في الأُمّة أدّى إلى حصول ظلم كبير؛ وهو على شاكّتين: ظلم لكتاب الله تعالى.. وظلم لذلك الرّجل العظيم الذي وصفه خاتم الأنبياء بكونه ملازماً وقريناً للكتاب السماوي وعرفه. و من الجدير هنا؛ أن ننظر بوعي أكثر وأعمق - وإن كان إجمالياً- إلى بعض نقاط هذين الظلمين العظيمين الكبيرين.

٥. كيف ظلّم كتاب الله تعالى؟

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) [ابراهيم/١]

حين جاء هكذا كتاب، فقدّم عليه كتاب زيد و عمرو.. فإنّ في ذلك ظلم للكتاب السماء، أليس كذلك؟! وحين حصل هذا... (يضلّ الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء) (ابراهيم/٢٧) وحاصل وعي هذه العبارة هو لزوم تقديم القرآن المجيد على كلّ كتاب.. والظلم في هذا الصّدّد؛ هو [اعتبار]

كتاب فلان وفلان ميزاناً يقاس القرآن وفقه.. إن هذا هو الظلم بعينه.. فيما العدل [اعتبار] القرآن مقياساً ومعياراً، تقاس آراء الناس وأفكارهم بالبناء عليه. فإن صار الحال حال الصورة الأولى: (فما له من نور) (النور/٤٠) وأن تكررست الصورة الثانية: (لنهديهم سبلاً) (العنكبوت/٦٩).

ويمكن تلمس هذه الحقيقة المؤكدة في كلمات أهل بيت النور: «مَنْ ابْتَغَى الْعِلْمَ فِي غَيْرِهِ؛ أَضَلَّهُ اللَّهُ» [تفسير العياشي، ج ١، ص ٦]؛ «مَنْ التَّمَسَّ الْهُدَى فِي غَيْرِهِ؛ أَضَلَّهُ اللَّهُ» [نفس المصدر].

وهكذا يمكن إدراك تفسير واضح لهذا الكلام الإلهي والمنطقي القائل: (يضلّ من يشاء و يهدي من يشاء) [النحل/٩٣؛ فاطر/٨].

والأسف كلّ الأسف على أنّ استدبار بيان العترة الطاهرة للكتاب الذي لا يمسه إلّا المطهرون، قد انتج الكثير من حالات الفهم الخاطئ والمنحرف للقرآن العظيم.

٦. وأما الظلم بتالي الكتاب [الإمام المعصوم] وهو الوجه الآخر لظلم الكتاب؛ ثرى من يجهل شأن الإمام أمير المؤمنين ٧ ومقامه السامي والأسمى في حفظ و ترويح و تبين وتفسير القرآن المجيد.. ومن لا يعرف دوره الأول في حلّ هذا الإمام الهمام العضلات و الردّ على الشبهات بصده؟ إنّ كثرة وتواتر الشواهد المتوفرة في كتب الفريقين تُغنيانا عن الحاجة إلى تفصيل هذه المقولة... ولكن السؤال الأصل هنا هو: كيف تمّ التعامل مع مبين كتاب؟ وأهمية هذا السؤال تدرك في وقت نصل فيه إلى قوله عوّجّل: (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرٌ وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرٌ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ) [البقرة/٢٦].

الإجابة المجملة قد وردت في آخر هذه الآية؛

وإيضاح ذلك، أنّ إضلال الله، بمعنى خذلانه، إنما يرد بعد بيان المحكمات العقلية و تفتح العقل.. حين يكفر الانسان - بمعنى الكفران للنعم- بعوامل وأسباب التوفيق الربانيّ باختياره و علمه.. فيسلب الله تعالى بعدله منه التوفيق، ثمّ يكله إلى نفسه بعد إتمام الحجّة الدافعة عليه. و هذا الإضلال - بالمعنى المذكور - ردّة فعلٍ على الاختيار السيئ للإنسان، أو ما أطلق عليه القرآن الحكيم: «الفسق».. ونعود مرّة أخرى إلى الآيات:

١. لتقريب المعنى يمكن أن يمثّل بمعلّم شغيق دقيق ناضج يلقي دروسه طيلة العام الدراسي إلى تلاميذه.. و من بينهم طلاب ذوو سلوك و حرص مطلوب.. وطلاب آخرون يتكاسون عن الدراسة ويؤذون معلمهم.. الذي يواصل حمده الطيب تجاه جميع طلابه.. فإذا ما واجد طالبان من الفريق الأول و الثاني مشكلة في يوم الامتحان، كان نسياً بعض الطالب.. فلاريد أن المعلم سيساعد الطالب الأول بداعي حرصه و سلوكه الطيب وأدبه الرفيع.. بما لا يساعد الطالب الثاني. و في الثقافة الدينية تستحق هذه المساعدة توفيقاً وهداية.. كما يستحق عدم المساعدة خذلاناً وإضلالاً. والمهم هو أنّ أتاً من هذين الموقفين الضاديين عن الله تعالى لا يعدّ ظلماً.. إذ الموقف الأول فضلٌ والثاني عدل.. وهذا ما تأسست عليه مفاهيم بعض الأدعية التي يطلب فيها في الباري سبحانه المعاملة بالفضل لا بالعدل..

(فلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) [الصف/٥].

(اولئك الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا) [الأنعام/٧٠].

فإذا ما اختار الإنسان الهداية و تقبلها، فإنه تعالى سيزيده هدى (والذين اهدوا زادهم هدى)
[محمد/١٧]

٧. من أهم عوامل الفسق؛ الظلم للآخرين؛ يقول سماحته:

«فعل الله بدءاً؛ هو الهداية.. ولكن حين تنتزل هذه الهداية فتظلم.. فإن جزاء الظالم إذ ذاك؛ الإضلال.. وكل ظلم يتناسب وجزاؤه، لأنّ النظام نظام حكمة.. ونضع الموازين القسط.. والسماة رفعها ووضع الميزان. و خاصية الظلم هي أنّ الشهيد الذي يقتل في طريق النبي، فإن ذنوبه كلّها تُغسل لدى أول قطرة تسقط في دمه؛ إلا ذنباً واحداً؛ وهو ظلم الناس و التجاوز على حقوقهم..»
حين يكون الظلم عظيماً إذا ما توجه إلى شيء من مال الناس، فإنّ دم الشهيد حتّى - مع كلّ جلاله- لن يُغسل، فكيف بحال الظلم المتوجه إلى القرآن العظيم؟ حينذاك؛ سيضعف هذا الظلم الكبير، إذا ما تسمّى باسم تفسير القرآن - أي لدى التبرير لهذا الظلم بظواهر بعض ألفاظ كتاب الله. و لم يصب هذا الظلم المضاعف طيلة السنين والقرون أهل بيت النبي عليهم الصلاة والسلام فحسب، وإنما طال جميع أجيال الأمة المسلمة؛ بل وجميع البشرية.. هذا الظلم الذي ينتهي إلى محو كتاب الله تعالى - على حدّ عبارة الإمام السجّاد^٧، إذ قال في دعائه الشريف في دعائه في يوم عرفة مخاطباً ربّه الجليل: «و لا تجعلني للظالمين ظهيراً ولا لهم على محو كتابك يداً ونصيراً» [الصحيفة السجّادية/ الدعاء ٤٧]

٨. الناس على موعد ليشهدوا يوماً هروب غيلان الظلم تحت مظلة طائر العدالة الموعود.. الذي سيزيح أشكال الظلم بنور العدل، لا سيّما ذلك الظلم المتوجه إلى أعظم عباد الله تعالى.. النبي وآل بيته الطاهرين...

و كذا في ذلك اليوم سينصب الإمام الموعود - عجل الله تعالى ظهوره المبارك - خياماً يعلم فيها القرآن (الإرشاد، ج ٢، ص ٣٨٦).

و ذلك الإمام الفدّ سيعيد الناس إلى (الهُوى الإلهي) كما مالوا من قبل إلى هوى النفس

[نحج البلاغة، الخطبة ١٣٨] كما كان الرسول الخاتم منهُمُكاً في تعليم كتاب الله [الجمعة/٢] و تبيينه [النحل/٤٤] ويفتح للبشرية صفحة جديدة من كتاب الحياة.. لم تكن قد رأتها من قبل، ولم تكن الأذان قد سمعت بمثل محتواها من قبل.. و نحن مدونا نواظرننا إلى فجره المشرق.. أليس الصبح بقريب؟

١. قال سيد الأوصياء في وصفه فعل خاتم الأوصياء^٨: «يطعف الهوى على الهدى؛ إذا عطفوا الهدى على الهوى، ويطعف الرأى على القرآن؛ إذا عطفوا القرآن على الرأى»...

٢. لا شك في خاتم الأنبياء صلوات الله عليه وآله فيما يتعلق بتبيين القرآن يواجه أناساً لم يكن لهم أدنى علم بكتاب الله. ولكن خاتم الأوصياء^٧ سيواجه أفراداً وجماعات قد نحتوا في أذهانهم صوراً خاطئة عن حقائق القرآن.. ولكن أصل المهتمتين واحد، وذلك أن الظهور امتداد للبعثة و محقق لأهدافها و غاياتها.